بلوغ الأرب

في

عقود الذهب

قال ابن عربان:

«وفي لقاء آخر.. بعد أيام.. جلس أخونا أبو العيال مع صاحبه أبي الهول، يُفضي إليه، ويُذَكِّرهُ بما حدث بعد ذلك في ذاك الحين فيقول:

«بعد تلك الحيرة في استثمار الفلسين.. وما أصابنا من خيبة وخسارة مع الاستثمار في الأوطان.. أكدت لي في ذلك الحين.. أن خير مجال لأمثالنا من صغار المستثمرين أن نلجأ للذهب..

هذا المعدن الوهاج، الذي بقي على مر العصور، قبلة المحتاج وغير المحتاج..

فهو أصيل أصالة أعرق العروق.. وفيٌّ وفاء الصديق الصدوق..

نادر ندرة الحق يقال في زمن يسوده الباطل..

مصادره محدودة.. ومناجمه معدودة..

بعض منتجيه يحتاج القمح.. وبعضهم يستهدف الربح..

وهو بين هؤلاء وهؤلاء، يقف في الأسواق ثابتاً مستقراً مضطرد الارتفاع..

لا يتذبذب تذبذب أسعار السلع الأخرى، ولا ينهار انهيار أوراق النقد التي تساقط تساقط أوراق الخريف.. مع كل نفخة من نفخات هذا النظام الاقتصادي الضعيف..

ولا كأسعار النفط الذي لم يهتدِ أصحابه إلى قرار.. ولم يصطلحوا على مبدأ أو معيار..

فالذهب يزداد عزاً كلما ازدادت الأحوال سوءاً.. ويسطع بريقاً ورصفاً كلما عصفت الفتن عصفاً.. فهو المنقذ في الأزمات.. المعين في الثورات.. المعيل في الحروب والنائبات..

لا يصيبه غبار العجز المالي...، ولا يسوده التضخم العالي...

وهو خير أنيس لمن يخشى المغامرة والتدليس...

كما أن فيه العوض للخاسرين من أمثالنا ممن يحق لهم العوض.. عن خسارة نجمت عن حسن النوايا وطيب الغرض.. في استثمار خيب الآمال في الوطن الغالي....

وأردف أبو العيال يحدث صاحبه أبا الهول فيقول:

«وأذكر أنني عندما سألتك عما إذا كان لجوؤنا لهذا الذهب المحترم سيوقعنا في مغبة الإكتناز المحرّم..؟

سخرت من أميتي الاستثمارية، وبينت لي أن اللجوء لهذا المعدن المختار لن يكون باقتنائه عيناً، وكنزه في حرز أمين...، فذاك سوق التحلي بهذا المعدن الثمين.....

وهو سوق يصلح للمتحلين من النساء لا للمستثمرين من الرجال... وأرباب الأعمال....

كما أفهمتني أن سوق التحلي بالذهب..، سوق لا ربح فيه ولا مكسب...!!

إلا لأصحاب الحرفة من الصاغة....

الذين لهم أسعارهم الخاصة.....

وهي أسعار لا تستجيب لمؤشرات السوق إلا ارتفاعاً في حال الشراء منهم أو انخفاضاً في حال البيع إليهم.... أو الاستبدال منهم...

أما سوق الأعمال لأمثالنا من رجال المال فهو سوق العقود...، عقود الذهب...، فهي المجال المقصود....

تشتري فيها وتبيع في الحال أو بعد حين...، فتقتني الذهب دون أن تراه.....

وتتمتع بأرباحه دون أن تبذل جهداً في حمله... أو تتحمل عناء في نقله... أو حيرة وقلقاً في حفظه وخزنه...

تتعاقد على الشراء ثم تبيع...، أو تتعاقد على أن تشتري بعدما تبيع... أو أن تبيع قبل أن تشتري..!! أو أن تشتري معاً وتبيع...!!

عقود ميسرة، وتعامل سمح، وبدائل مطروحة، في سوق مفتوحة... يحدد

فيها الأسعار طلب وعرض أمين، وتداول حر متين، وهوامش تضفي على السوق إغراء...، وفرص متاحة للقبول...، وأسعار في صعود دون نزول...، فنجم الذهب لمّاع دون أفول...

لذلك كان علينا ـ في رأيك ـ أن نلحق قبل فوات الأوان...، ونغرف من بحر الأرباح دون توان...!!

وأصارحك الآن بأنني ـ رغم أميتي الاستثمارية ـ لم أرتح لمثل هذا النوع من الاستثمار الذي أدفع فيه المال نظير ورق مكتوب وشهادات مطبوعة بمداد أغلى من أغلى الذهب...

فأنا ـ رغم أميتي في هذا المجال ـ أفهم أن التداول في دنيا الأعمال، يقوم على أساس مبادلة قيمة بقيمة، وثروة بثروة، ونفقة بمنفعة أما دفع الفلوس في ورق مدسوس.... وقرطاس منقوش أو شهادات مزركشة فقد كان من البدع التي لم أفهمها ولم أرتح إليها....
ولكني لم أجد بداً من الاقتداء بك، فأنت الخبير في هذا المجال، وأنا لا أفهم في مسألة المال.، ولا في دنيا الأعمال....

لذلك فقد اتكلنا على الله ورحنا نبحث في مكاتب الأوفشور وبيوت التمويل والاستثمار عن أصغر العقود حجماً لنكتتب بها اسماً...
وبعد طول بحث وعناء...، وتضرع ورجاء...، وتحمل نظرات العطف والرثاء لضآلة ما نمثله من ثراء نظير ما نطمح إليه من تطاول على مقام الذهب الثمين.... قَبِلَ البعضُ التعامل معنا على مضض، فدخلنا بذلك عالم المستثمرين الكبار... ورحنا نتابع الأخبار...

نُقلب الصحف المحلية والأجنبية....
ونقرأ النشرات الإقليمية والدولية....
نُفسر الأقاويل...، ونؤول التآويل....
نعلق على التعليقات..، ونحلل التحليل...

نتقصى المطالعات ونحاول فهم الدورات والتنبؤات..
وقد كانت كل الأحوال مطمئنة «والأشيا معدن»..

فالأنباء والتنبؤات كانت تؤكد أن المعدن الأصفر قد طار وحلق.. ثم حلق وطار...، وأن الأقية منه ستتجاوز الألف دولار...!!

وتمنينا لو أن لدينا من الفلوس أضعاف ما كان لدينا فألقيناه في حِمى الذهب الغالي، مع أسعاره الطائحة في العلالي...
وأسفنا على ما كان لنا من استثمار في الأوطان ضاع فيه من مالنا نصف ما كان...
وما زالت أسعار الذهب تطلع وتطلع..، ونحن لا نصدق ما نرى ونسمع..

وحلقنا مع الذهب فوق أجنحة الآمال...
وأخذنا نُمني النفس بكل طيب، عزيز..، وغال..
وطالت أحلامنا النجوم...، وخرجنا من دوامة الهموم...
ونعمنا برفيف الأمنيات مع طيوف أرباح الغد الآت...

وما هي إلا أسابيع قليلة حتى أطلت علينا الأخبار، صبيحة أحد الأيام، تُلمح إلى أن الذهب المحلق في الأعالي قد ترنح ومال، كمن أصابته ضربة شمس أو لفحة ريح...
وتابع أبو العيال محدثاً صاحبه يقول:
وأسرعت إليك أسأل عما أصاب معدننا الرصين...، فطمأنتني ـ حينها ـ موضحاً بأن ما أصاب ذهبنا الغالي لا يعدو أن يكون عارضاً موقوتاً لن يلبث بعده أن يزداد ثباتاً ويمعن في إثره صعوداً... وأضفت أن خبرتك في الأسواق قد علمتك سر هذا التذبذب المرصود الذي يسبق الإمعان في الصعود...!!

فتعلقنا بقشة من الأمل...، وجلسنا نرقب ونزيد من المتابعة دون ملل....
ولكن ترنح الذهب ما لبث أن أضحى ـ بعد أيام ـ سقوطاً نفاثاً، ازداد المستثمرون في متابعته هماً ومساً ولهاثاً..

وفي غمرة السقوط قمنا نبحث ـ هنا وهناك ـ علّنا نجد لحالنا إنقاذاً. . .
نقرع الأبواب. .، ونوسط الأصحاب. . .، ونرجو، في مكاتب وبيوت الاستثمار، أكبر الأرباب. . . .
ولكنا فهمنا أن الذهب المعقود لا يباع إلا في الأجل الموعود. . .، وأن البيع في الحال يأكل نصف المال. . .، فأخذنا نضرب كفاً بكف. . .، ونندب سوء المآل. .، وأسعار الذهب تتجاوز في هبوطها نصف الألف. . . .

وما حان الأجل، أجل العقود، حتى كان الأمل قد ضاع في الذهب المعبود. .، وكنا قد خسرنا في معدننا الثمين نصف ما دفعناه قبل حين. . .!!

ثم أردف أبو العيال مخاطباً صاحبه أبا الهول:
«وَعُدْتُ إليك، أسألك وأستفتيك، عن سر هذا الإنقلاب الخطير، في جوهر الذهب الغالي على مر العصور. . .
فعلمت منك ـ في ذلك الحين ـ أننا قد وقعنا في شرك ما يدعى بأزمة الفوائض ـ فوائض النفط التي تضخمت تضخماً لم تعد تتحمله بطون الصفوة المتقدمة من الدول. .، وضاقت عن استيعابه أجهزة المال ومجالات الاستثمار فيها، فخشيت أن تعود تلك الفوائض للأوطان فيتوفر لها حسن النوايا والصدق والإخلاص في الطوايا. . . .
فتبدأ بها عجلة نماء حقيقي بالدوران. . . وهو نماء تكره الصفوة المتقدمة من الدول تباشير دورانه كراهية التحريم. . . .
أو أن تعود تلك الفوائض لتستخدم في إنتاج ما يلزم من قوت. . . .
وهو إنتاج تحاربه الصفوة المتقدمة حتى الموت.

لذلك فما كان من تلك الصفوة إلا أن اخترعت لعبة الذهب، وأوهمت العالم بأنه الملاذ الأمين في عصر القلاقل الملعون. . .
فانقاد أصحاب الفوائض انقياد القطيع نحو المذبح، يلمع في ساحته بريق الذهب الثمين ويسطع. .
فاشتروا بالفوائض الذهب بألف ثم باعوه بالنصف. .

وأكلت الصفوة المتقدمة نصف الفوائض في هذه اللعبة التي لم تكلفها سوى طبع عقود ورقية...
وتلفيق أخبار مطلية...
وتوزيع أنباء مرئية...
وحسن إخراج المسرحية...
المسرحية التي ارتفعت فيها أسعار الذهب ارتفاعاً مجنوناً باسم العرض والطلب الحر....
ثم ما لبثت ـ تلك الأسعار ـ أن هبطت هبوط الطائرة الورقية، يلعب بها الأطفال، باسم العرض والطلب الحر...!!
وبين الصعود والهبوط، أكلت الصفوة المتقدمة من الدول، نصف الفوائض من قصعتنا الذهبية ومنسفنا العامر...
فلا حول ولا قوة إلا بالله
وما عليك يا صاح إلا أن تطلب العوض ممن عليه العوض

* * *